مجلة العلوم الإنسانية ـــــعدد 50 ديسمبر 2018،المجلدأ ،ص. ص 99-109 ـــــــ

أشكال حضور الذّات الشّاعرة في شعر عثمان لوصيف

آمـنة زيتـــون
كلية الآداب واللغة العربية
جامعة الإخوة منتوري
قسنطينة

ملخص:
تعدّ قصيدة السّيرة الذاتيّة (Poème Autobiographique) واحدة من الأجناس الأدبيّة التي سعت في زمن المنهجيات الحديثة إلى البحث عن شعرية خاصة بها، وإثبات حضورها في فضاء القراءة بوصفها نوعاً أدبياً جديداً، برز إلى الوجود من تلاقح جنسين أدبيين هما : الشّعر، و السّيرة الذاتيّة، حيث إنّ محور السّرد في هذا الجنس الأدبي الجديد هي الذّات الشّاعرة (الأنا).
ولعل تجربة الشّاعر "عثمان لوصيف" من بين أبرز تجارب الشّعراء الجزائريين المعاصرين الذين جسّدوا هذا النّوع الأدبي المستحدث من خلال أعماله الشّعريّة.
تسعى هذه المقاربة إلى البحث في تجليات قصيدة السّيرة الذاتية في النّصوص الشّعريّة لهذا الشّاعر، عن طريق استجلاء أشكال حضور الذات الشّاعرة فيها، مع الاشتغال على إبراز تمظهرات الضمير و الميثاق السّيرذاتي.
الكلمات المفتاحية: قصيدة السيرة الذاتية ، ميثاق السيرة الذاتية ، الضمير الشخصي ، عثمان لوصيف ،الشاعر الذاتي.

Abstract:
The biographical poem is one of the literary genres that attempts in the time of modern methodologies to search for its own poetic and to prove its presence in the reading space as a new literary genre. It emerged from the overlap of two literary genres: poetry and biography, where the narrative axis in this new literary self-poet (Ego).
Perhaps the experience of the poet "Athmane Loucif" is among the most prominent experiences of modern Algerian poets, who embodied this literary genre through his own poetic works.
This approach attempts to research in the manifestations of thebiographical poem in the poetic texts of this poet, by clarifyingthe forms of the presence of the self-poet in it, while working on the most prominent manifestations of conscience and the autobiographical pact.
Key words: Biographical Poem, Autobiographical Pact ,Personal Pronoun, Athmane Loucif and Self-Poet.

مقدّمة:

تعدّ قصيدة السّيرة الذاتيّة واحدة من الممارسات الإبداعية المهجنة من جنسين أدبيين هما: الشّعر والسّيرة الذاتيّة. وهي في أبسط مفهوم لها «تقديم رواية الحياة منظومة شعرا بناء على تشغيل الذاكرة بأقصى طاقتها»[1].وهذا الجنس الأدبي المستحدث شأنه شأن أي نص حكائي ،لابد من أن يكون له آليات خاصة،عليها تقوم عملية استنطاقه.

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة،الجزائر2018

ولعل الدعائم الأساسيّة التي يقوم عليها هذا الجنس الأدبي استنادا إلى المرتكزات التي حددها "فيليب لوجون"(Philippe Lejeune) هي:

أ- الضمير السّيرذاتي.

ب- العقد أو الميثاق السّيرذاتي.

فقصيدة السّيرة الذاتيّة لا تختلف عن غيرها من الأنواع الأدبيّة في تعددية استعمال الضمائر في السّرد (أنا،هو،أنت)،غير أنّ الأول أكثر هيمنة في السّرد السّيرذاتي، لكونه يحيل على الذات مباشرة ويقلل المسافة الفاصلة بين السّارد والشّخصية المركزية[2].أما الميثاق السّيرذاتي (Le pacte Autobiographique) فهو«عقد يفترض وجود قواعد صريحة،ثابتة ومعترف بها لاتفاق مشترك بين المؤلفين والقراء،بحضور الكاتب الشرعي الذي يتم التوقيع عنده على نفس العقد وفي نفس الوقت».[3]ويمكن الإعلان عن هذا الميثاق عن طريق العنوان،أو الإهداء،أو المقدمة،أو حتى الأحاديث الصحفية أو الإعلامية التي تتم في وقت النشر أو بعده[4]، باعتبارها مفاتيح قصيدة السّيرة الذاتيّة.

ولاشك أنّ الدارس للشّعر الجزائريّ المعاصر سوف يلحظ تمظهر هذه المرتكزات السّيرذاتيّة في نصوص بعض الشّعراء، كنصوص الشّاعر "عثمان لوصيف".[5]إذ تعدّ تجربة هذا الأخير من أبرز التّجارب الشّعريّة التي مارست هذا النّوع التّجريبي من الكتابة عن وعي وإدراك، إذ يصرّح في إحدى الحوارات بانتمائه إلى النّصوص الشّعريّة التي يكتبها،فيقول:« حين أكتب الشّعر فأنا أتعرى تماما، وأبوح بكل خصوصياتي وأسراري، ولا أستطيع أن أمنع ذلك اطلاقا»[6]. فهذا التّصريح يعدّ نوعا من أنواع الميثاق السّيرذاتي، وهو الميثاق السّيرذاتي الإحالي، الذي يتمّ من خلال« تصريحات المؤلفين في مقدمات كتبهم أو في المقابلات والحوارات التي تجرى معهم...»[7].ما يؤكد حضور ذات " عثمان لوصيف" في شعره.

هذا ما يدفعنا إلى مساءلة مدونته الشّعريّة وتحليلها،والسّعي إلى إبراز تمظهرات الضمير والميثاق السّيرذاتي، من خلال أشكال حضور ذاته الشّاعرة، التي من أبرزها:

1/ الذّات الشّاعرة الحزينة:

إذا ما أردنا أن نحدد أسباب وبواعث الحزن والمعاناة لدى الشّاعر "عثمان لوصيف" فإننا نجدها متنوعة ومعظمها مرتبط بالزمن الماضي. إذ يسترجع في قصيدة "حبّه أكبر" تلك الذكريات الحزينة أيام كان يعاني الفقر المدقع،لدرجة أنّه لا يملك قوت يومه لكي يسدّ به جوع أطفاله الصغار، وكذا زوجته المريضة، حينما يقول:

« سار عثمان مستغرقا
لم تغازله تاجرة
أوسماسرة
مقلبا كان .. يبحث عن عمل
ليزق الفراخ وأمهم المستميتة».[8]

يوقع الشّاعر هنا حضوره الشّخصي، وذلك من خلال التّصريح باسمه الحقيقي،كميثاق سيرذاتي نصي صريح،ويقصد بهذا الميثاق «التصريح باسم المؤلف داخل النص»[9]. وبهذا لا يبقي " عثمان لوصيف" شكّاً لدى القارئ على أنّ النّص ينتمي إلى ذاته الشّاعرة،وأنّه شخص حاضر في داخل النّص،مثلما هو موجود في الواقع،وعلى غلاف الديوان.ما يقودنا إلى القول إنّ: المؤلف =السّارد =الشّخصيّة الرئيسة.

ولعل أهم بواعث الحزن الذي تغلغل في نفس الشّاعر " عثمان لوصيف" فقدانه لابنه الرضيع "نور"،وهذا ما تجلى في قصيدة "نور":

« لم يَرَ النّور نور!
ما الذي أوقف النبض
في قلبه القرمزي».[10]

ويقول أيضا:

« لم يَرَ النّور نور!

ها أنا الآن
ارفع كفيّ نحو السماء
وأغرق بين الرمال
وفي البيت ثكلى تُصلّي.» [11]

يصوّر الشّاعر في هذه الأسطر الشّعريّة حزنه الشّديد على طفله "نور" الذي توفي عند الولادة. فالمناخ العائلي بوصفه بؤرة الجوّ الأليف الحميمي، يضخّ هنا حرارة شكواه إلى المولى عزّ وجلّ. حيث يتزعم ضمير المتكلم (أنا) هذه الأسطر الشّعرية، فيحيل على شخصية شاعرنا، وهو يسترجع ذكريات ماضيه الحزين.إذ يُعدّ الأنا المتكلم«أكثر الضمائر النحوية حضورا داخل القصيدة السّيرذاتية،حيث يعبر هذا الضمير عن شخصية الشاعر نفسه»[12]. وهذا ما يؤكده "عبد الملك مرتاض"،إذ يرى أنّ«استعمال ضمير المتكلم نشأ متواكبا مع ازدهار أدب السيرة الذاتية،فكأنه امتداد لها،أو كأنه امتداد منه».[13]

غير أنّ حسرات آلام فقدان الطفل "نور" تُمزق الأنا الشّاعرة لتسحب الآخر إلى منطقة السّرد:

«آه! تبكي وهيبة
تبكي..
مُحيًّا يغورُ.. وعينانِ مثل سنونوّتين
تغوصانِ في الماء مذبوحتينِ
الغلام اختفى
والغرام انطفا
والشعاع.. الشعاع الأخير»[14].

يرسم لنا الشّاعر هنا لحظات الوداع لابنه، وتستعيد ذاكرته بريق عينيه في لحظة يتوارى فيها الحبّ، ليعوضه الظلام.ولقد شكّل كلّ من اسم "نور" واسم " وهيبة" في هذه الأسطر الشّعريّة ميثاقا نصيا قرائنيا، ويعني هذا النوع من المواثيق أنّ المؤلف « لا يصرح باسمه في النص، وإنما بقرينة تدل عليه بشكل مؤكد، ولا تدع مجالا للشك، وهذا النوع لا يحسم إلا بالرجوع إلى حياة المؤلف خارج النص،بغية التأكد من صحة الميثاق الذي يريد الشّاعر تثبيته داخل النص»[15].ويمكن أن نثبت أنّ اسم "نور" هو في حقيقة الأمر ابن الشّاعر من خلال الرجوع إلى تلك الإحالة التي أوردها في الهامش السّفلي للقصيدة، فيقول:« هو ابني نور، توفي عند الولادة ودفن بعين وسارة الجلفة».[16]أمّا اسم "وهيبة" فيدلّ على زوجة الشّاعر، ولعل أوضح دليل على ذلك الإحالة المثبتة في أسفل القصيدة،إذ يشير إلى أنّها«أمّ نور»[17].وإذا ما عدنا إلى عنوان هذا النّص الشّعري نلفه معنونا ب"نور" هذا الاسم الذي يحمل دلالة انتمائية بحكم أنّه اسم لابن الشّاعر " عثمان لوصيف" ،وعليه فإنّ هذا العنوان الفرعي يشكّل ميثاقا سيرذاتيا،حيث إنّ الشّاعر« يعمد إلى اختيار عنوانات لا تترك شكاً في أنّ الضمير النحوي الوارد في النص يعود على المؤلف»[18]. وبهذا تتشكل لدينا إشارات دامغة، يمكن اعتمادها ميثاقا يُستند إليه، في عائدية هذا النّص الشّعري وانتسابه إلى قصيدة السّيرة الذاتية.

ويمضي "عثمان لوصيف" بعد ذلك في فتح السّرد على حياته المهنية،وما فيها من تقلبات وأحزان، ففي قصيدته "تاج العروس" المهداة إلى طلبته، بقوله:«إلى طلبتي يوم فراقهم»[19].فالإهداء هنا يلعب دوراً فعالاً بوصفه عتبة قرائية، ترسم للقراءِ تصوراً مفادهُ خصوصية التّجربة في هذه القصيدة، حيث تكشف هذه العتبة عن الطابع السّيرذاتي من خلال استحضار الذاكرة، التي تعدّ أهمّ ركائز النّص السّيرذاتي، ليستدعي الشّاعر ذكرياته الحزينة يوم فراق تلامذته:

« كان يمسك غصن الألمُ
لا طباشيرْ
لا حرف في اللوحْ
إلا الدموع .. الدموعُ»[20].

يوهم ضمير الغائب (هو) الموظف في هذا المقطع الشّعري بعدم التّطابق بين من يعيش الحدث (الشّخصية المركزية) ومن ينهض بأعباء السّرد (السّارد).لكن هذا الإيهام بعدم التّطابق يبدأ بالتّلاشي عندما يستدرك القارئ أنّه إزاء نص سيرذاتي يحيل فيه الضمير على « شخص واقعي تُنسب إليه مسؤولية تلفظ النص المكتوب»[21]. وذلك بعد أن يُسمح بالتحقق من هويته خارج النّص،عن طريق العقد السّيرذاتي، والمتمثل هنا في عتبة الإهداء.

ولا يختلف "عثمان لوصيف" عن غيره من الشّعراء الجزائريين في اتخاذه من القصيدة مجالا للتعبير عن معاناة وطنه الجزائر من ويلات الاستعمار الفرنسي، وما عاشه شعبها من تخلف وحرمان، إذ إنّ في قصيدة "المعجزة" لا نجد مفردة أكثر تعبيرا وتجسيدا لحالتي الحزن والألم، اللتين انتابتا الشّاعر جراء ما عاناه وطنه أكثر من كلمة (آه) التي كررها الشّاعر أكثر من مرّة، لتدلّ على عمق الألم:

«آه!
كم غبنا عن الدنيا قرونا وقرونْ
وعلى أنقاضنا تجري التواريخ
ويجري العابرون
آه !
كم نحن رقدنا و الصقورْ
في السماوات تدورْ
كم تركنا للحِمام
ونُسِينا في ديناميس الظلام».[22]

قصد شاعرنا في هذه الأسطر الشّعريّة استعمال الصيغ التّعبيريّة ذات التّداخل الضميري، إذ نجد تماهيا بين الـ (أنا) و الـ (نحن) في(غبنا ، أنقاضنا، رقدنا، تركنا ، نسينا) في مسعى من الذّات الشّاعرة للدفع بالحسّ الفردي إلى منطقة الحسّ الجمعي ، مع الاحتفاظ بحضورها السّيري في النّص، لأنّ الذّات الشّاعرة تُحتفظ عبر تنقلاتها بين الـ (أنا) و الـ (نحن) على منطقة وسطى بين الداخل الذي تمثله الذّات، و الخارج الذي يمثله المجموع المعبر عنه بالـ (نحن) ، كما أنّ الضمير (نحن) يحمل ضمنيا في طياته الضمير (أنا) الذي يغدو جزءا من الـ (نحن).

مثلما كانت القضايا السّياسيّة الوطنيّة مُحركا للإبداع لدى " عثمان لوصيف" لما توقظه في حسّه من شعور يستجيب بفعله للحظة الكتابة، فإنّ الحسّ القومي يجعل رؤية الشّاعر تتجاوز حدود ذاته ، و الحيز الجغرافي لوطنه، إلى هموم وطنه العربي الكبير ، فلم تهدأ قريحته وهو يرى ما يحدث في فلسطين، إذ عاد إلى شعره ليرثي به حال هذا المكان المقدس ، ويحاول من خلاله إعادة مجد الأمة الإسلامية الضائع، فيقول في قصيدته "أنا آتٍ":

« أنا آتٍ يا فلسطين
الجراحْ
لأغنيك أهازيج الكفاحْ
وأغنيك الفحولةْ
وأقاصيص البطولةْ
ليس في زوّادتي اليوم طربْ
إن ألحاني سيوف من لهبْ» [23]

يتخذ الشّاعر من ضمير المتكلم (أنا) صوتا سرديا ناطقاً بأحزان الذات ، التي هي أحزان الإنسان العربي في الوقت نفسه، فاندمج الذّاتي بالإنساني ، إذ إنّ «مصدر الشاعر في إلهامه الفني الحياة التي يعايشها في قاع المجتمع، فحتى (الأنا) الذي يرتكز عليه الشّاعر في إطار هذا السّياق، تتحدث في النهاية عن الإنسان المعاصر وقضاياه»[24].

فالأسى و الحزن عند "عثمان لوصيف" في مجمله ناتج عن تجارب واقعية ذاتية مؤلمة، أمّا بعض الهموم فيتقاسمها وبني جلدته عامة، وبذلك أصبح الشّعر الأداة التّعويضيّة التي استعان بها الشّاعر

ليتجاوز محنه، وهذا ما يؤكده بقوله إنّ: «القصيدة هي الحبيبة التي أناجيها وأبوح لها بما أعاني»؛[25] فالكتابة الشّعرية بالنسبة إليه وعاء يفرغ فيه معاناته.

2/ الذّات الشّاعرة المُحبّة:

يعدّ الشّاعر "عثمان لوصيف" من الشّعراء الذين مارسوا التّصوف في كتاباتهم الشّعرية وفي حياتهم الواقعية على حدّ سواء، فالتّصوف عنده يعتمد على جزء هام من التّصوف القديم، وهو عنصر المحبة، حيث أنّ المحبة عنده عامة و شاملة للخالق و مخلوقاته دون استثناء ، ومردّ هذا هو معرفة الشّاعر التامة بما يفعله الحبّ في النّفوس، فبالحبّ تتبسم الحياة و يتحول قفرها وردًا ... فقد قدم لديوانه "جرس لسماوات تحت الماء" بقوله:

«إلى أبناء الشرق و أبناء الغرب
إلى أبناء الجنوب و أبناء الشمال
من كل أرجاء العالم
رسالة حب وسلام»[26].

إنّ نفسية الشّاعر مليئة بالحبّ لكلّ من حوله، لدرجة أنّه جعله خياراً نهائياً حتى مع أعدائه ؛ لأنّ نفسه تأبى الحقد و تمقته ، ولعل شعرية الإهداء في ديوانه "نمش وهديل" أبلغ تعبير عن هذا الإحساس، حيث يقول:

« إلى كل من يحبني
وإلى كل من لا يحبني
في أي مكان أو زمان
أهدي هذه القصائد
حبًا وكرامة..» [27].

فالحبّ يؤلف موضوعا رئيسا في شعر "عثمان لوصيف"، إذ لا نكاد نقرأ بيتًا شعريًا إلا ووجدناه ينطق محبةً، فيقول:

« شاعر.. بالمحبة أصدحُ»[28].

هذا ما يتجلى واضحا في قصيدة "غردايةٍ"، حين يسترجع ذكريات طفولته السّعيدة مع أمّه،فيقول:

«أتذكر غفوي في حجر أمّي..
تهدهدني ريشتان حريريتان
فأغرق في حلم أزرق.. ثم أصحو
أعضّ يدًا من ندى .. وأداعب
ثديا سخيّ»[29].

تفتتح الأنا الشّاعرة نصها بمفردة تحمل في طياتها طاقة سردية وسيرذاتية في آن واحد، هي مفردة (أتذكر)، التي تعمل على خلق صورة غائرة في عمق الزمن، إذ يسترجع ذكريات طفولته الجميلة ، حينما كان يغفو في حجر أمّه وهي تهدهده بيدها الحنونة فيذهب في نوم عميق، مشبهًا نومه في حضنها بالحلم الأزرق، ومن هنا ندرك مدى تعلق الشّاعر بأمّه وحبّه لها.

ومن الشّخصيات التي سجلت حضورًا في حياة وإبداع "عثمان لوصيف" ، شخصية "وهيبة" الزوجة الثانية له، فقد خصّها بقصيدة معنونا إيّاها بـ "وهيبة" ، قائلا فيها:

« وهيبة
سحابة عنبر
وحلم يرفرف أخضر.. أخضر
وخمر عجيبهْ»[30].

وأيضا:

« وهيبة

قرنفلة تترعرع
ومن عين وسارة تتضوع
فتغمرني النشوات الحبيبة»[31].

وصف "عثمان لوصيف"زوجته "وهيبة" بأجمل الأوصاف، مبرزًا مدى حبّه لها، فهي: قرنفلة ، وسحابة عنبر، وحلم أخضر...، فهي كل شيء جميل في الكون، حيث تمّ اعتماد اسمها في هذه القصيدة كميثاق نصي قرائني يحيل على انتساب هذا النّص إلى قصيدة السّيرة الذاتيّة ، ويمكن أن نستدّل على أنّ هذه المرأة هي زوجة الشّاعر من خلال ما صرح به في إحدى حواراته، إذ يقول :« ثم تزوجت فيما بعد (وهيبة) وهي أمّ ابني نور الذي لم تكتب له الحياة...»[32]. كما أنّ عنوان هذه القصيدة "وهيبة" يحمل بُعدًا سيرذاتيا بوصفه نوعًا من الميثاق السّيرذاتي الخارج نصي، وبهذا نحصل على ميثاق آخر يؤكد الميثاق السّابق ويدعمه.

كما عبّر شاعرنا في إهداء مجموعته الشّعريّة "الإرهاصات" عن حبّه العميق لزوجته الأولى "رشيدة". فيقول:

«إلى سيدة النساء جميعا
إلى التي غمرتني بدفئها وحنانها
وآثرت إسعادي على سعادتها
إلى زوجتي الحبيبة رشيدة
البريئة براءة الأطفال
الطاهرة طهارة الملائكة»[33].

فهذا الإهداء يكشف منذ الجملة الأولى عن مدى حب الشّاعر لزوجته"رشيدة" ، فهي بالنسبة له : الحبّ و الحنان، البراءة و الطهارة، ولا تخرج هذه العتبة القرائية عن الطابع السّيرذاتي ، وذلك من خلال تصريح الشّاعر باسم زوجته "رشيدة" بوصف هذا الإهداء ميثاقًا نصيًا قرائنيًا يوجه قراءة القارئ وينسب النّص إلى السّيرذاتي.

عاش الشّاعر "عثمان لوصيف" كذلك تجارب حبّ عابرة، كتلك التّجربة العاطفية التي عاشها في الواقع مع طبيبة، أثناء مكوثه في إحدى مستشفيات العاصمة، حيث لفّ الشّاعر هذه الموظفة (طبيبة) بجوّ خرافي، وسبغ عليها بعض الصفات الأسطوريّة، حين يقول:

« آه من أيّما كوكب ساطع
تتنزّل حورية ترتدي أبيضا
وتفكّ الطلاسم
ثم تمسّد أوردتي..»[34].

حتى أصبحت بين جوانحه في مقام الإلهة، فراح يطلب منها الشّفاء و البُرْءَ في هذه الأسطر الشّعريّة:

« أنت الآلهة.. أنت أنا !
آه ! أدعوك أن تضعي يدك اللدنية
فوق جبيني
وأن تطفئي النار.. تلك التي تتأجّج
بين ضلوعي منذ تجلّيت لي..»[35].

يحيل ضمير المتكلم (الأنا) الباسط بنفوذه على هذه الأسطر الشّعريّة ، على شخصية الشّاعر وهو يستذكر محطات من ماضيه السّعيد.

ويكشف "عثمان لوصيف" أيضا عن حبّه لوطنه وحنينه للمكان الأول في حياته - مكان الولادة- فيذهب إلى وصف النخّيل و الرّمال التي تتميز بها مدينة طولقة. معلنا في الأخير عن حبّه لها، وهذا ما ورد في قصيدة "طولقة":

« النخيل هنا كالعرائس في عيدها الذهبي

والعراجين مثل الثريات أو كالحلي
و الرمال التي خضبتها الدموع
الرمال التي قطرتها الشموع
(...)
غير أنا نُحَبِّكْ أكثر حين يَجِنُّ الغسق!» [36].

يمكن عَدُّ عنوان هذا النّص الشّعري "طولقة" ميثاقًا سيرذاتيا يؤكد في النّهاية على سيرذاتية هذا النّص، باعتبار مدينة طولقة موطن ولادة الشّاعر ومقرّ إقامته.

ومعروف عن الشّاعر "عثمان لوصيف" أنّه يسأم من رتابة المكان فيكثر التّرحال و التّنقل بين المدن الجزائرية، إذ نجده قد عنون بعض قصائده بأسماء مدن جزائرية زارها كـ: غرداية ، وباتنة، والأغواط...وغيرها ، فهذه الأماكن بالنسبة إليه هي الحصن المنيع الذي يحتمي به ويهرب إليه، وهي المحطة النّفسية التي يرتاح فيها، فمثلا في قصيدة"وهران" يكثر الشّاعر من الصفات المنسوبة إلى هذه المدينة ، ليبرز تمسكه بها وحبّه لها ، فهي سرير القرنفل ، فيروزة الليل، نافورة المسك...، بل هي كلّ شيء أثير لدى الشّاعر. فيقول:

« أحبك..آه..أحبك !
أنت سرير القرنفل بَلَّلَهُ الضوء
فيروزة الليل ذرذرها النجم فوق المدينة
نافورة المسك رقرقها الفجر بين الصنوبر
سقسقة الشمس في شرفات البيوت». [37]

ويتابع الشّاعر وصف هذه المدينة بلغة رقيقة رومانسية، تدلّ على اندماج الشّاعر في المكان و انغماسه فيه وتملك هذا المكان له:

« وناديت عبر الشوارع ناديت: عثمان.. عثمان !
لكن فستانها
لفّ بستانها
لفني معها.. واحتواني البخور فغبت
سكرت برائحة الخوخ و اليانسون
سكرت.. أنا الميت الحي!
ناديت من خارج الكون : وهران.. وهران! »[38].

فمدينة وهران من المدن الجزائرية التي زارها "عثمان لوصيف" فعلاً ، وتمتّع بسحر جمالها، إذ جاء عنوان القصيدة "وهران" متوافقا مع ما جاء في المتن الشّعري، وهذا يمكن عدّه ميثاقا سير ذاتيا، كما صرح الشّاعر باسمه الحقيقي كميثاق نصي صريح، ليتحقق بذلك التّطابق بين الأركان الثلاث: المؤلف = السّارد = الشّخصية المركزية.

إنّ الحبّ بمفهومه العام و المتمكن في ذات الشّاعر كأنّه يشكل بصوره و اتجاهاته الملاذ و الملجأ الآمن الذي يجعله يُقبل على الحياة بنظرة أوسع وأرحب أفقا.

3/ الذّات الشّاعرة المُغتربة:

إنّ ظاهرة الاغتراب في كنهها شعور نفسي معقد تفرضه ظروف داخلية أو خارجية على الذّات الإنسانية، وقد أصبحت هذه الظاهرة واضحة في الشّعر الجزائري المعاصر.

فالشّاعر " عثمان لوصيف" تتحرك لديه الذّات المغتربة نتيجة عيشه في بيئة صحراوية (طولقة) لا تشجع على الإبداع ولا على الثقافة، و إحساسه الخاص بأنّه مبدع لا يفهمه النّاس ولا يقدرون موهبته الفريدة، وهذا ما يبرزه في قصيدة "المنفى"، فيقول:

« مكسور أنت هنا .. مكسورْ
صقر يتوّثب
لكن ليس يطيرْ

آه.. يا زنبقة الأوجاعْ!
آه .. يا معجزة الإبداعْ!
هل ينفى الشاعر في مسقط رأسهْ؟
هل نار الحرف تضاعف من نحسهْ؟» [39].

يظهر الميثاق السّيرذاتي هنا من خلال تذييل الشّاعر القصيدة بمكان و تاريخ كتابتها «طولقة في:1997.06.11». فمدينة طولقة أصبحت - في نظره- مدينة سلبية، إذ تحولت إلى ما يشبه المقبرة، مما يجعله يصرّح باغترابه فيها:

« خلّني
للضياع، للخوف، للسحر، وللموت خارج الأحقاب
خلّني.. خلّني فهذا اغترابي
هذه شهوتي.. وهذا عذابي»[40].

ما دعا الشّاعر إلى الانطواء على ذاته و التقوقع داخلها:

« فمشيتُ
سادرا
مرتبكا
وعلى يأسي انطويتُ!»[41].

إنّ هذه الغربة الروحيّة التي يعاني منها"عثمان لوصيف" يدفعه فيها« شعوره المرهف بظلم المجتمع وقيود الحياة إلى اعتزال النّاس و الاستغراق في حدود الذات...»[42]. إذ يقول:

« أجلس للمأساة وحيداً
أشرب نخب الهزائم
وحيدا..أسند حلمي إلى الشظايا وأسأل:
من الساحرة في الفجائع و الانهيارات؟» [43].

ومن الدوافع أيضا التي أدت بالشّاعر إلى الشّعور بالاغتراب و العزلة، مفارقته لأصدقائه و ذبول الذكريات الجميلة في حياته، وهذا ما يتجلى في قصيدة "صراع مع الشيطان":

« وها أنا وحدي بلا قلوعْ
أغالب الدموعْ
بحارتي تناثروا شتاتْ
وانقرضوا في غمرة الأمواجْ
والزبد الأجاجْ
ماتوا وما هشّت لهم حياةْ
وها أنا وحدي بلا أصحابْ»[44].

يحيل ضمير المتكلم (أنا) في المقاطع الشّعريّة السّابقة على شخصية الشّاعر؛ لأنّ (أنا) الشّعر هي (أنا) الشّاعر الموجودة في القصيدة، و المنشطرة إلى ذاتين، ذات ورقية مكانها في الشّعر وذات واقعية تحاول الذات الشّاعرة إثباتها في الشّعر، لتغدو في النهاية (أنا) الشّعر مطابقة على نحو ما الـ (أنا) المعرفية للشاعر.[45]

ويمضي الشّاعر "عثمان لوصيف" في الحديث عن إحساسه بالغربة في وطنه، الذي انهارت كل القيم فيه، ولم يبق أي شيء إلا الحزن و الدمار و الخراب.حيث يقول في قصيدته"صراع مع الشيطان":

«يا راعي القطيعْ
ابكِ على الربيعْ
لا عشب لا نوارْ
في هذه الديارْ

هذا زمان العقم و الخريفْ
و الموت و النزيفْ» [46].

ولقد عَظُمَ أمر الذّات المغتربة لدى شاعرنا نتيجة الصراع الذي يعيشه مع القوى الفوقية (السّلطة)، وما تمارسه هذه الأخيرة من جور و ظلم و استبداد، فإحساس الشّاعر« بالغربة في أرض لا تعرفه وقوانين تلجمه و تحطم عناصر شخصيته الروحية كل ذلك إنما يجعل الشّاعر مستنجدًا باكيًا كاشفًا عن همومه وآلامه معبراً عما تحمله النّفس من عنت و بؤس»[47]. إذ يقول في قصيدة "شاعر ملعون":

« صُبّي جحيم حقدك المكنونْ
وانتقمي..
أيتها الآلهة البلهاءْ
هذا الصّبيّ.. شاعر ملعون
لا يمدح السّلطان
والكهّان» [48].

إنّ عدم توافق الشّاعر و الممارسات السّياسيّة السّائدة في وطنه جعله يشعر بالغربة و العزلة، هذا الشّعور وصل به إلى أن لا يبالي بالموت، بل أنّه يتمناه:

«علني ألقـــى فضائـــــي في فنائـــــي»[49].

وما عزاء "عثمان لوصيف" في هذه الغربة و الوحدة إلاّ التّوجه إلى الخالق عزّ وجلّ وإلى شعره، فالكلمة هي خلاص الشّاعر ومنقذه من هذا الواقع المرّ:

« نحـــــن في الله لنـــا مُعْتصـــــم
وبنـار الضّـــــاد نحيي ما غبـــر» [50].

فالذّات الشّاعرة حاضرة في هذا البيت الشّعري من خلال اندماجها في التّركيب الإسنادي بالضمير المتصل الدال عليها (نا)، كما أنّ الضمير (نحن) يحمل ضمنيا في ثناياه الضمير (أنا) الذي يغدو معادلا موضوعيًا لذات جمعية تشاركه الواقع و المصير نفسهما.

وهكذا فإنّ عدم التّوافق النّفسي و الاجتماعي أدّى بالشّاعر "عثمان لوصيف" إلى حالة من الاغتراب و الانفصال.

ونخلص في الأخير إلى القول:

- قصيدة السّيرة الذاتيّة تتكئ على مرتكزات أساسيّة، تتمثل في: الضمير المتكلم (أنا)، و الميثاق السّيرذاتي.
- يقوم التّشكيل السّيرذاتي في شعر"عثمان لوصيف" على ركيزة أساسيّة تكمن في تمظهر الضمير المتكلم (أنا) ، الذي يحيل على شخصية الشّاعر داخل المتن الشّعري.
- تعدّ المواثيق السّيرذاتية المبثوثة داخل البنية الدّاخلية لشعر "عثمان لوصيف" موجهات قرائية ساهمت في تجسيد تجاربه الواقعية.
- تجلت الذّات الشّاعرة في شعر "عثمان لوصيف" بأشكال وأنماط مختلفة أبرزها: الذّات الحزينة، و الذّات المحبّة ، و الذّات المغتربة.
- أسهم توظيف فن السّيرة الذاتيّة في نصوص الشّاعر "عثمان لوصيف" في إعطائها ملامح التميّز و الاختلاف.

الإحالات و الهوامش:

1- حاتم الصكر:مرايا نرسيس -الأنماط النوعية و التشكيلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت ، لبنان، ط1999،1م، ص.140

2- ينظر: خليل شكري هياس: القصيدة السّيرذاتية - بنية النص و تشكيل الخطاب، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2010،1م،ص .26

3- فيليب لوجون: السّيرة الذاتيّة - الميثاق و التاريخ الأدبي، ترجمة و تقديم عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1994،1م، ص.13

4- ورد في: خليل شكري هياس: المرجع السابق، ص.36

5- شاعر جزائري معاصر، من مواليد عام 1951م بمدينة طولقة ولاية بسكرة ، تألق في الثمانينيات بعد أن عرف إنتاجه الشعري طريقه إلى النشر، للتوسع ينظر: الربعي بن سلامة و آخرون: موسوعة الشعر الجزائري، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر،ط2، 2009م، ص.514

6- لزهر فارس: الصورة الفنية في شعر عثمان لوصيف، رسالة ماجستير، إشراف يحي الشيخ صالح، كلية الآداب و اللغات ، قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة منتوري، قسنطينة،2004-2005م، ص.393

7- خليل شكري هياس: المرجع السابق، ص.44

8- عثمان لوصيف: أبجديات، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، ط1997،1م،ص.11

9- خليل شكري هياس: المرجع السابق، ص.37

10- عثمان لوصيف: المصدر السابق، ص.15

11- المصدر نفسه، ص.17

12- ينظر: خليل شكري هياس: المرجع السابق، ص.27،26

13- عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية - بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت، د.ط، 1998م، ص.162

14- عثمان لوصيف: المصدر السابق، ص.18،17

15- خليل شكري هياس: المرجع السابق ، ص.40

16- عثمان لوصيف:المصدر السابق، ص.14

17- المصدر نفسه، ص.59

18- خليل شكري هياس: المرجع السابق، ص.43

19- عثمان لوصيف: نمش و هديل، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، ط1997،1م، ص.71

20- المصدر نفسه، ص.73

21- فيليب لوجون: المرجع السابق، ص.34

22- عثمان لوصيف: الإرهاصات، دار هومة للطباعة و النشر و التوزييع، الجزائر، ط1997،1م، ص.39.38

23- المصدر نفسه، ص.41

24- محمد بوشحيط: تطور إشكالية الشعر الجزائري المعاصر، مجلة الرؤيا، إصدار إتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، يناير 1983م، عدد03،ص.51

25- لعلى سعادة: سيميائية العنوان في شعر عثمان لوصيف، رسالة ماجستير، إشراف الطيب بودربالة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة،2004-2005م، ص.234

26- عثمان لوصيف: جرس لسماوات تحت الماء، منشورات البيت، الجزائر، ط2008،1م، ص.07

27- عثمان لوصيف: نمش وهديل، ص.02

28- عثمان لوصيف: قالت الوردة، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، ط1، 2000م، ص.44

29- عثمان لوصيف: غرداية، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، ط1997،1م، ص47،48.
30- عثمان لوصيف: أبجديات، ص.59
31- المصدر نفسه، ص.60
32- لزهر فارس: المرجع السابق، ص.394
33- عثمان لوصيف: الإرهاصات، ص.03
34- عثمان لوصيف: أبجديات، ص.78
35- المصدر نفسه، ص81.
36- عثمان لوصيف: الإرهاصات،ص95، 96.
37- عثمان لوصيف: براءة، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، ط1، 1997، ص54.
38- المصدر نفسه، ص59.
39- عثمان لوصيف: نمش وهديل ، ص50.51.
40- عثمان لوصيف: براءة، ص.43
41- عثمان لوصيف: الإرهاصات، ص80.
42- ورد في: عبد الله محمد آل سلطان الأسمري: الذّاتية في شعر محمد عبد القادر فقيه، رسالة ماجستير، إشراف عبد الله أحمد باقازي، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية، 1422هـ - 2001م، ص56،57.
43- عثمان لوصيف: براءة، ص.31
44- عثمان لوصيف: الإرهاصات، ص.19
45- ورد في : خليل شكري هياس: المرجع السابق، ص26،27.
46- عثمان لوصيف: الإرهاصات ، ص.23
47- عمر بوقرورة: الغربة و الحنين في الشعر الجزائري الحديث 1962/1945، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، د.ط، 1997م، ص .234،235
48- عثمان لوصيف: نمش وهديل، ص.35
49- عثمان لوصيف: براءة، ص.14
50- عثمان لوصيف: الإرهاصات، ص33.